الإيمانُ والعَقل

مايكل فيتزجيرالد(*)

نُشرت هذه الرسالة في سبتمبر من عام ١٩٩٨، وهي موقعة من البابا الراحل يوحنا بولس الثاني الذي كان هو نفسه فيلسوفًا. فقد كان حاصلًا على دكتوراه في اللاهوت، من جامعة الدومينيكان بروما، بتقديمه رسالة عن الإيمان لدى القديس يوحنا الصليبي، وهو معلم شهير في الحياة الروحية. وبعدها قدم رسالة أخرى في كراكوفيا عن ماكس شيلر. ودَرَّس لعدة سنوات في جامعة لوبلين. وكان مهتمًا بشكل خاص بعلم الأخلاق، مستندًا في تفكيره إلي مبدأ الشَخْصانيّة Personnalisme مذهب يؤكّد على أهميّة الشخصيّة وعلى أنه لا يجوز انتهاك حُرْمَتها]. ويدل على ذلك كتاباه "محبة ومسئولية" و"الشخصية والفعل". إن الرسالة العامة "الإيمان والعقل" موقعة من البابا، ولكن من المعروف أن البابا يستعين بأشخاص لمساعدته في تجميعها. ويقول البعض أن البابا الحالي، بندكتوس السادس عشر ساهم في إعداد الرسالة العامة "الإيمان والعقل". ولا أستطيع أن أُبدي أي رأي بشكل أو بآخر في هذا الشأن، ولكن هذا الأمر ليس مستحيلًا. فإن الكاردينال جوزيف راتزنجر، الذي سيصبح فيما بعد بندكتوس السادس عشر، كان هو المسئول عن مجمع عقيدة الإيمان، وهي الهيئة التي تحرص على النقل الجيد للإيمان المسيحي في الكنيسة الكاثوليكية. ومن المؤكد أن الموضوع الذي تتناوله هذه الرسالة العامة يندرج في إطار

(*). سفير الفاتيكان في القاهرة، مصر.

انشغالاته. ويجب أيضًا ملاحظة أن الكاردينال/ جوزيف راتزنجر، الذي أصبح فيما بعد بندكتوس السادس عشر، تناول هذا الموضوع في المحاضرة الأكاديمية التي ألقاها في ريجنسبورج في سبتمبر ٢٠٠٦. وإذ نتطرق لهذه النقطة، حسنٌ أن نحدد مختلف أنواع السلطة التي تمارسها كل من الوثائق البابوية.

فالسلطة الأولى تؤول إلى الوثائق الصادرة عن المجامع، والتي يصوت عليها الأساقفة الحاضرون في كل مجمع، ثم يُصدق عليها البابا ويصدرها رسميًا بعد ذلك.

وفي المرتبة الثانية تأتي الرسائل العامة الموجهة إلى الكنيسة جمعاء والتي ربما تتجاوزها لتصل إلى ما أبعد منها.

ثم توجد أيضًا وثائق الإرشاد الرسولي، وهي وثائق موقعة من البابا ولكنها مستندة إلى عمل قام به آخرون بشكل علني.

وفي المقام الأخير، تأتي خُطَب المناسبات، مثلا عند استقبال البابا للمجموعات التي تتوافد على روما، أو خلال رحلات البابا خارج الفاتيكان. وتعتمد أهمية وثِقَل كل وثيقة على الأهمية التي تتسم بها المناسبة وعلى أهمية الموضوع المطروح فيها.

وبالنسبة لمحاضرة البابا في رجنسبورج، فحتى لو كان البابا هو الذي كتبها بنفسه، فقد ألقاها في مناسبة أقرب لأن تكون مناسبة شخصية، وهي العودة إلى الجامعة التي كان قد دَرَّس بها فيما مضى.

لنتناول الآن مضمون هذه الرسالة العامة، ولنتناول أولا تركيبتها قبل أن نتفحص عن كَثَب بعض المقاطع منها.

تتحدث المقدمة عن الميل الطبيعي للكائن البشري إلى البحث عن الحقيقة. كان القول المأثور "Gnôthi seauton" – "اعرف نفسك " منقوشًا على عتبة هيكل دلف. كيف إذن يمكن الرد على ذلك؟ وترد الرسالة في عبارتها الأولى : " الإيمان والعقل هما بمثابة الجناحين اللذين يمكنان العقل البشري من الارتقاء إلى تأمل الحقيقة "؛ فكما أن العصفور المجرد من أحد جناحيه لا يمكنه أن يطير، هكذا تشير الرسالة إلى أن الشخص البشري بدوره لن يستطيع بلوغ الحقيقة – وينبغي على كل حال فهم الحقيقة القصوى – إذا افتقر سواء إلى الإيمان سواء إلى العقل. وكتحليل أخير، يدل ذلك ضمنيًا، على أن الله، باعتباره غاية الإيمان، وأن الحقيقة باعتبارها غاية العقل، هما وجهان لعملة واحدة.

ويقدم الفصل الأول من هذه الرسالة الحكمة الإلهية التي لا يمكن معرفتها إلا من خلال الوحي الإلهي ولا يمكن إدراكها إلا بالإيمان. ويصف فصلان متتاليان من الرسالة الدور الذي يلعبه كل من الإيمان والعقل. ويمكننا ملاحظة العناوين المختارة لهذه الفصول: "أؤمن لأفهم" -"Credo ut Intellegam" و"أفهم لأؤمن" "Intellego ut Credam". إذ يقود ذلك إلى التأمل في العلاقة بين الإيمان والعقل.

ثم يتمركز الجزء الثاني من الرسالة على النتائج العملية لهذه الرؤية للكنيسة. ويتم بإيجاز استعراض دور التعليم الرسمي للكنيسة، الذي يُفهَم على أنه خدمة لبلوغ الحقيقة. ويولي هذا الفصل أيضًا الأهمية للتفاعل بين اللاهوت

والفلسفة. وأخيرًا، تذكر الرسالة بعض المقتضيات في مجال الفلسفة، فضلا عن بعض المسئوليات التي تقع على عاتق اللاهوت المعاصر.

واسمحوا لي الآن أن أعرض بعض المقاطع من هذه الرسالة:

(البند ١٦ – فقرة ١) "العلاقة العميقة بين المعرفة بالإيمان والمعرفة بالعقل يعبر عنها الكتاب المقدس بكلمات غاية في الوضوح. هذه المعضلة تعالجها الكتب الحكمية خصوصًا. واللافت في قراءة هذه الصفحات من الكتاب المقدس، بلا تحيز، هو أن هذه النصوص تتضمن لا إيمان إسرائيل وحسب، بل كنز الحضارات والثقافات البائدة. فمن خلال هذه الصفحات الغنية بالبداهة العميقة، ولغاية محددة، تعود مصر وبلاد ما بين النهرين تردد صوتها على أسماعنا، وتعيد الحياة إلى بعض الملامح المشتركة ما بين ثقافات الشرق القديم".

وهنا يتعلق الأمر بالـ"كتب الحكمية". وأنتم تعلمون أن العهد القديم يتألف من أجزاء عديدة يتميز كل منها بأنماط أدبية مختلفة: فتوجد أسفار موسى أو التوراة، ثم الأسفار التاريخية، تليها الأسفار الحكمية وأخيرًا الأسفار النبوية. وقد كُتبت كثير من الأسفار الحكمية في القرون السابقة لميلاد يسوع، أي أنها تأثرت بشدة بالفكر اليوناني. ووفقًا للفهم المسيحي للوحي، هذا الأمر لا يمثل أية مشكلة.

(البند ١٦ – فقرة ٤) " إن ما يتميز به النص البيبلي هو الاعتقاد بأن هناك وحدة عميقة ومتماسكة بين المعرفة بالعقل والمعرفة بالإيمان ".

(البند ١٧ – فقرة ١) "من المستحيل إذن أن يقوم صراع أو منافسة بين العقل والإيمان: فالواحد يندمج في الآخر ولكل منهما حيزه الخاص ".

(البند ٢٠ – فقرة ١) " من هذا الملحظ يتضح أن العقل مقدر حق قدره، لا فوق قدره. فكل ما يصل إليه العقل يمكن أن يكون صحيحًا، ولكنه لا يكتسب ملء معناه إلا إذا وُضع محتواه في رؤية أوسع، هي رؤية الإيمان ".

ويتكرر هذا التأكيد أيضًا في الفصل التالي " أفهم لأؤمن " – "Intellego ut Credam". يوجد إذن بحث عن الحقيقة، بحث نظري وعملي في مجالات المعرفة والأخلاق، وهو إذن بحث عن القيم.

(بند ٢٥ – فقرة ٣): " لا بد إذن من أن تكون القيم التي نختارها وننتهجها في الحياة قيمًا حقيقية، وذلك بأن القيم الحقيقية وحدها تقدر أن تسوق الإنسان إلى الكمال وطبيعته إلى التمام. حقيقة القيم هذه يجدها الإنسان لا بالتقوقع على ذاته بل بالانفتاح على هذه الحقيقة وقبولها أيضًا في الأبعاد التي تتخطاه ".

ويبحث كل إنسان عن معنىً للحياة لأنه يجد نفسه في مواجهة الموت.

(بند ٢٧ – فقرة ١): " مبدئيًا كل حقيقة، وإن جزئية، إذا كانت بالفعل حقيقة، هي عندنا حقيقة شاملة. ما هو حق يجب أن يكون حقًا في كل مكان وكل زمان. إلا أن الإنسان يطلب، بالإضافة إلى هذه الشمولية، مطلقية قادرة على أن تؤدي جوابًا ومعنى لمطلبه، وتكون شبه مرجعية أخيرة ومرتكز لكل

شيء. إن ما يطلبه الإنسان إنما هو – بتعبير آخر – تعليل نهائي وقيمة قصوى ليس من بعدها ولا يمكن أن يكون من بعدها أسئلة أو مراجع أخرى ".

إن البحث عن الحقيقة لا يصل دائمًا إلى نتائج مُبهرة، ولكن المهم هو المثابرة في هذا البحث. وعلى كل حال، من المفيد أن نفرق بين شتى أشكال الحقيقة.

(البند ٣٠ – فقرة ١): " أكثر هذه الحقائق هو الذي يرتكز على بديهيات مباشرة أو يثبت بالاختبار؛ ويدخل في هذا النطاق حقيقة الحياة اليومية والبحث العلمي. في مرتبة أخرى نجد الحقائق الفلسفية التي يدركها الإنسان بما يميز عقله من قدرة فكرية. ثمة أخيرًا الحقائق الدينية التي تتجذر هي أيضًا، إلى حد ما، في الفلسفة؛ وهي متضمنة في الأجوبة التي تقترحها الأديان المختلفة على الأسئلة المصيرية جريًا على تقاليدها ".

ثم تتطرق الرسالة بعد ذلك إلى البعد الاجتماعي للمعرفة. فكثير من الحقائق التي نعيش بها، قد تلقيناها من آخرين. وليس من الممكن أبدًا أن نتحقق بأنفسنا من كل شيء، إذ يجب أن نثق فيما يصلنا من حقائق.

(بند ٣١ – فقرة ١): ويعني ذلك أن "الإنسان الباحث عن الحقيقة هو إذن من يحيا بالإيمان".

(بند ٣٣ – فقرة ٢): " يجب ألا يغيب عن ذهننا أن العقل نفسه بحاجة إلى أن يظل مدعومًا في سعيه، بفعل حوار واثق وصداقة مخلصة. جو الريبة

والحذر الذي يحيط أحياناً بالبحث الفكري يذهل عن تعليم الفلاسفة الأقدمين الذين كانوا يحسبون الصداقة قرينة من أهم القرائن لإجادة الفلسفة ".

ومن هنا تتضح أهمية هيئات مثل هذه، إذ بفضلها يتسنى للفلاسفة من مختلف الدول العربية أن يتبادلوا الخبرات عن أبحاثهم وأن يحثوا بعضهم البعض على مواصلتها.

(البند ٣٦ – فقرة ٢): وفي الفصل الذي يتعلق بالصلة بين الإيمان والعقل، يلاحظ أن "من أهم الجهود التي بذلتها الفلسفة الكلاسيكية تمحيصها للمعتقدات الدينية من أدرانها الميتولوجية ". فكان هؤلاء الفلاسفة يبحثون عن ركيزة عقلانية لإيمانهم في الألوهية.

ثم تخصص الرسالة بعض الصفحات لعلاقة المسيحيين الأوائل بالفلسفة. فلم تكن تلك العلاقة يسيرة، لأن مسئولي الكنيسة كانوا أحياناً يتخذون موقفاً دفاعيًا في مواجهتهم للتيارات الغنوصية والنظريات الباطنية. وبعد ذلك تأخذنا الرسالة إلى القرون الوسطى مع أنسلموس وتوماس الإكويني، وأيضًا مع نشأة الجامعات. وآنذاك كانت الصلة الوثيقة التي تربط بين الفلسفة واللاهوت أساسية؛ ولكن في الوقت ذاته، كان هناك اعتراف باستقلالية الفلسفة والعلوم. غير أن تلك الصلة الكائنة بين الفلسفة واللاهوت قد اضمحلت، وفي العصور الحديثة، اتخذت الفلسفة موقف المعارض للوحي المسيحي.

(البند ٤٧ – فقرة ١): " ويجب ألا ننسى، من جهة أخرى، أن دور الفلسفة نفسه قد تغير في الثقافة المعاصرة؛ فمن كونها حكمة وعلمًا شاملًا انحدرت شيئًا

فشيئًا لتمسي مجرد دور هامشي. في هذه الأثناء، ترسخت أشكال أخرى من النشاط العقلاني بقوة متزايدة، وهدفها التركيز على هامشية العلم الفلسفي. هذه الأشكال العقلانية تنزع أو بإمكانها أن تنزع إلى أن تكون "وسيلة وظيفية" في خدمة الأهداف المنفعية، أهداف الامتلاك أو التسلط، بدلا من أن تتجه إلى تأمل الحقيقة والبحث عن الغاية الأخيرة ومعنى الحياة ".

لا أعرف إذا كنتم تجدون أنفسكم في هذا الوصف لحالة الفلسفة اليوم. وسأختم هذا العرض بالإشارة إلى بعض الأفكار المطروحة في الفصل الأخير والمتعلقة بالفلسفة:

(البند ٨١ – فقرة ٢): " لكي تكون الفلسفة في تناغم مع كلام الله، لا بد لها من أن تكتسب، قبل كل شيء، بعدها الحكمي، وقدرتها على البحث في الحياة بمعناها الأخير والشامل ".

(البند ٨٢ – فقرة ١): " هذا الدور الحكمي، لا تستطيع أن تضطلع به أي فلسفة ليست هي نفسها علمًا حقيقيًا وصحيحًا يعالج الواقع في جوانبه الخاصة والنسبية – سواء أكانت وظيفية أم شكلية أم منفعية – ولا يتناول حقيقته الكلية والنهائية، أي موضوع المعرفة في صميمه. هذا إذن مقتضى ثانٍ: وهو أن نتثبت من قدرة الإنسان على الوصول إلى معرفة الحقيقة، معرفة تبلغ إلى الحقيقة الموضوعية، من منطلق مبدأ المعادلة بين الحقيقة والعقل الذي ارتكز عليه فلاسفة الفلسفة المدرسية ".

(البند ٨٣ – فقرة ١): "المقتضيان اللذان أتينا على ذكرهما يلحقهما مقتضى ثالث: ضرورة فلسفة تتسم بقيمة ميتافيزيقية حقيقية، بإمكانها أن تتخطى المعطيات الاختبارية للوصول، في سعيها إلى الحقيقة، إلى ما هو مُطلق ونهائي وأساسي ".

ويختتم البابا بنداء إلى الفلاسفة (البند ١٠٦ – الفقرة ١): " وإني أتوجه بندائي أيضًا إلى الفلاسفة ومعلمي الفلسفة، ليجرءوا على استعادة ما يتميز به الفكر الفلسفي، وفي خط تقليد فلسفي ثابت وقيم، من صفات الحكمة الصحيحة، والحقيقة الراهنة بما فيها الحقيقة الميتافيزيقية. ولينقادوا للمقتضيات النابعة من كلام الله. وليجرءوا على أن يقيموا خطاهم العقلي وأسلوبهم البرهاني من منطلق هذا النداء. وليكونوا دائمًا مشدودين إلى الحقيقة وحريصين على الخير المتضمن في الحق، فيتمكنوا هكذا من أن يرسموا المَناقِبية الصحيحة التي أمست البشرية بأمس الحاجة إليها، وبخاصة في هذه الأيام".